

بهمذان والجبال فاستقبله يوماً ولم يترجل له وقال له ايها
الصاحب اريد ان اترجل للخدمة ولكن العلم يأبى ذلك وكان
يكتب في عنوان كتابه الى الصاحب « داعيه عبد الجبار
ابن احمد » ثم كتب « وليه عبد الجبار بن احمد » ثم كتب
« عبد الجبار بن احمد » فقال الصاحب لندمائه اظنه يؤول
لمره الى ان يكتب « الجبار » .

وقال الصاحب : ما فظعني الا شاب بغدادي ورد علينا
الى اصبهان فقصدني فاذنت له وكان عليه مرقعة وفي رجليه
تعل طاق فنظرت الى حاجبي فقال له وهو يصعد اليّ اخلع
تعلك فقال ولم لعلني احتاج اليها بعد ساعة فغلبنني الضحك
وقلت اتراه يريد ان يصفعني بها .

بهرة قدره

الصاحب من افراد الوزراء الذين علت منزلتهم وعظمت
قدرتهم ووقرت مهابتهم في نفوس الناس فانه كان يجب
التعظيم والبذخ والخيلاء وتقدم مر فيما تقدم من سيرته حوادث
عدل على ذلك وفيما يأتي ثمة لما سبق .
كان الرجل مفتوناً بظواهر الابهة والعظمة فاذا بدامنه

ما يدل على الرفق واللين والمباينة فإنه يروي من ورائه
لزيادة إعجاب الناس به وتعظيمه فلقد روي عنه أنه كان
يلبس القباء تخففاً بالوزارة وانتساباً معها إلى الجندية وهذا
نوع من الذهب بالنفس ظاهره الدمعة وباطنه الزهو .
قال أبو النصر بن خواشاده : ما غبقت أحداً على منزلة
كما غبقت الصاحب أبا القاسم ابن عباد فانا كنا مقيمين
بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية
فدخل الصاحب إلى داره في البلد آخر نهار يوم الحضور
المجلس الذي يعقده لاهل العلم وتحت دابة رهواء وقد ارسل
عنايه فرأيت وجوه الديلم واكابرهم من اولاد الامراء يعدون
بين يديه كما تعدو الركابية .

وقال الوزير ابو سعد منصور بن الحسين الآبي : لما امر
الوزارة في ايام نجر الدولة فكانت اشهر من ان يحتاج إلى ذكرها
فان اول وزرائه كان كافي الكفاة واسنة الاقلام وعذبات
الاسنة نكل دون اسر اوصافه وادنى فضائله فان ابناء الملوك
والامراء والقواد وسائر من ساواهم من الزعماء الكبار مثل
لولاد مؤيد الدولة و . . . يحضرون باب داره فيقفون على

دوابهم مطرقين لا يتكلم واحد منهم هيبة واعظاماً لموضعه الى ان يخرج احد خلفاء حجابيه فيأذن لبعض الكابريهم ويصرفهم جملة فكان من يؤذن له في الدخول يظن انه بلغ الآمال ونال الفوز بالدنيا والآخرة فرحاً ومسرة وشرقاً وتعظيماً فاذا حصل في الدار واذن له في الدخول الى مجلسه قبل الارض عند وقوع بصره عليه ثلاث مرات او اربعاً الى ان يقرب منه فيجلس من كانت رتبته الجلوس الى ان يقضي كل واحد منهم وطره من خدمته ثم ينصرف بعد ان يقبل الارض ايضاً مراراً . ولم يكن يقوم لاحد من الناس ولا يشير الى القيام ولا يطمع منه احد في ذلك . وتزل بالصيمرة عند عوده من الاهواز فدخل عليه شيخ من زهاد المعتزلة يعرف بعبد الله بن اسحق فقام له فلما خرج التفت كافي الكفاة وقال ما قت لاحد مثل هذا القيام منذ عشرين سنة وانما فل ذلك به لزهده فانه كان احد ابدال دهره . فاما العلم فقد كان يري من هو اعلم منه فلا يحفل به . واما هيئته في الصدور ومخافته في القلوب وحشمته عند الصغير والكبير والبعيد والقريب فقد بلغت الى ان كان صاحبه نخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريد بسببه

ويمسك عما تشره اليه نفسه امكانه وقد ظهر ذلك للناس
بعد موته وانبساط نحر الدولة فيما لم يكن من عادته فعلم انه
كان يزوم نفسه لحشمته ثم كان يجله محل الوالد اكراماً واءظاماً
ويخاطبه بالصاحب شفاهاً وكتاباً . فاما اكابر الدولة فكان
الواحد اذا رأى احد حجابيه بل احد الاصاغر من حاشيته فان
فرائضه كانت ترتعد وجوانحه كانت تصطفق الى ان يعلم
ما يريد منه ويخاطبه به . وتظلمت اليه امرأة من صاحب
لفولاذ بن مانادر وذكرت انه ينازعها في حق لها فما زاد على
ان التفت الى فولاذ وكان في موكبه يسير خلفه فبهت
وتحير وارتعد ووقف ولم يبرح الى ان سار كافي الكفاة
ثم ارسل مع المرأة من ارضها وازال ظلامتها وبثل هذا
كثير . وأما اسبابه وحاشيته وهيبته ورتبته فان من ايسرها
ان كان له عدة من الحجاب منهم من على مربطه ثلاثماية
رأس من الدواب او ما يقاربها وكانت احوال بلكا الحاجب
تزيد على ذلك زيادة كثيرة .

وقال الوزير ابو سعد ايضاً : كان نصر بن الحسن بن
الفيروزان خال نحر الدولة مقداماً شجاعاً قليل الالبالة قد

استعصى على نخر الدولة واقطع قطعة من بلاده ونقلب عليها
واحتمل على جماعة من عسكره فقتلهم بأنواع القتل ثم كسر
له عدة عساكر الى ان تكاثرت عساكر نخر الدولة فكسرتة
وشتت جموعه وهرب نحو خراسان حتى صار الى اسفرايين ثم
بدا له فورد الري ليلة الجمعة است بقين من شوال سنة ٣٨٤
وقصد في الليل باب كافي الكفاة مستجيراً به ومستعظماً
له وكنت في هذه الليلة بحضرة كافي الكفاة فأتاه الحاجب
وقدمضى هزيع من الليل فاخبره بوقوف نصر بن الحسن
ابن الفيروزان على الباب خاشعاً متضرعاً فرأيته قد تحير في
الامر ساعة ثم راسله بان السلطان الاعظم (يعني نخر الدولة)
ساخط عليك ولا يجوز لي ان آذن لك في دخول داري الا
بعد ان ترضاه وتستعطف قلبه فاذا عفا عنك ورجع لك
فالدار بين يديك وانا معين لك فعاد الحاجب اليه بذلك
ورجع فقال انه امتنع من العود وقال انما جئت الى الصاحب
لائذا به ومنقطعاً اليه ولا اعرف غيره وهو يحتاج ان يدبر
امري ويحيرني ويحامي علي ويذب عني واستمر على الالحاح
في الخضوع والاجتهاد أن يأذن له في الدخول وانقل من

باب الكبير الى باب الخاصة وسأل واجتهد .

رضاه عن نفسه

أما رضاه عن نفسه فقد ادى به الى الاعجاب والتهيه وما
حربك من سيرته يدل على انه كان يذهب بنفسه بعيداً حتى
يوردها موارد الغرور ويستحسن من نفسه ما يستقبحه من
غيره فانه كان يعيب التيه وبيته ولا ينصف مناظره وما
رواه عنه ابو حيان التوحيدي في هذا الباب هو ادنى الى
الرقاعة كقوله « أنا واحد هذا العالم وانت بما تسمع عالم »
وكقوله : « كان ابو الفضل - ابن العميد - سيداً ولكن
لم يشق غبارنا ولا ادرك شوارنا ولا فسح عذارنا ولا عرف
غرارنا لا في علم الدين ولا فيما يرجع الى نفع المسلمين
فاما ابنه فقد عرفتم قدره في هذا وفي غيره
طياش قلاش ليس عنده الا قاش وقماش مثل
ابن عياش والهروي الحواش . وولدت والشعري في طالعي ولولا
دقيقة لادركت النبوة ، وقد ادركت النبوة اذ قتت بالذب
عنها والنصرة لها فمن ذا يجارينا او يبارينا ويغارينا ويسارينا
ويشارينا .

وعجب الصاحب بنفسه ظاهر في افعاله وشائع في اقواله حتى
انه يتيه على من يتغزل به كقوله :

وشادن جماله تقصر عنه صفتي
اهوى لتقبيل يدي ققلت لا بل شفتي

وقال ابو حيان « . . . ومع هذا يخدعه - اي الصاحب -
الصبي ويغلبه الغبي لان المدخل عليه واسع والمآتي اليه سهل
وذلك بان يقال : مولانا يتقدم بان اعار شيئاً من كلامه ورسائله
منظومه ومنشره فما جبت الارض اليه من فرغانة ومصر وتفليس
الا لاستفيد كلامه وافصح به واتعلم البلاغة منه اكانما رسائل
مولانا سور قرآن وقرء فيها آيات فرقان واحتجاجه من اثنائها
برهان فسبحان من جمع العالم في واحد وابرز جميع قدرته في
شخص . فيلين عند ذلك ويدوب وبلهى عن كل مهم وينسى
كل فريضة عليه ويتقدم الى الخازن بان يخرج اليه رسائله مع
الورق والورق ويسهل الاذن عليه والوصول اليه والتمكن
من مجلسه .

وقال ابو حيان ايضاً: ناظر (الصاحب) بالري اليهودي رأس
الجالوت في اعجاز القرآن فراجع اليهودي فيه طويلاً وماتنه

قليلاً وتنكد عليه حتى احتد وكاد يتقد فلما علم انه قد سحر
بنوره^(١) واسعط انفه احتال طلباً لمضادته ورفقاً به في مخائله
فقال ايها الصاحب فلم تنقد وتستشيط وتلتهب وتختلط كيف
يكون القرآن عندي آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه
فان كان النظم والتأليف بديعين و كان البلاغ فيما تدعي عنه
عاجزين وله مدعين وها انا اصدق عن نفسي وأقول ما عندي
ان رسائلك وكلامك وفقرك وما توألفه وتباده به نظماً ونثراً هو
فوق ذلك او مثل ذلك وقريب منه وعلى كل حال فليس يظهر
لي انه دونه وان ذلك سيستعلي عليه بوجه من وجوه الكلام او
بمرتبة من مراتب البلاغة . فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد
وسكن عن حر كته وانحمص ورمه به وقال ولا هكذا يا شيخ
كلامنا حسن وبليغ وقد اخذ من الجزالة حظاً وافراً ومن البيان
نصيلاً ظاهراً ولكن القرآن له المزية التي لا تجهل والشرف الذي
لا يخمل واين ما خلقه الله على اتم حسن وبهاء مما يخلق العبد
بطلب وتكلف . هذا كله يقوله وقد خبا حيه وتراجع مزاجه
وصارت ناره رماداً مع اعجاب شديد قد شاع في اعطافه وفرح

(١) كذا بالاصل ولعله سحر تنوره .

غالب قد دب في اسارير وجهه .

وقال هلال بن المحسن : ورد الى الصاحب رجل من اهل الشام ، فكان فيما استخبره عنه ، رسائل من تقرأ عندكم ؟ فقال رسائل ابن عبد كان ، قال ومن ؟ قال رسائل الصابي ، وغمزه احد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفتن فراه الصاحب فقال تغمز حماراً لا يحسن .

وقال الثعالبي في برد الاكباد : قال الصاحب ابن عباد : كتاب العصر اربعة الاستاذ الرئيس يعني ابن العميد والاستاذ ابو القاسم يعني عبد العزيز بن يوسف وابو اسحق يعني الصابي ولو شئت لذكرت الرابع « يعني نفسه »

عنه للعرب وبغضه للشعوبية

الصاحب وان كان فارسي النسب فانه عربي الدين والادب . وقد كان حبه للاسلام واطلاعه على علوم الدين واعجابه بادب العرب غالباً على عصبية الفارسية لذلك فهو يحب العرب وبغض الشعوبية من الفرس ومن شعره في هذا المعنى قوله في رجل يتعصب للعجم على العرب ويعيب العرب يأكل الحيات :
يا عائب الاعراب من جهله لا أكلم الحيات في الطعم

فالعجم طول الليل حياتهم تنساب في الاخت وفي الام
علمت مما تقدم ان صاحب لم يكن له من الاولاد غير
بنت زوجها من الشريف ابي الحسين علي بن الحسين الحسيني فلما
اتته البشارة بسبطه عباد انشأ يقول :

احمد الله لبشري اقبلت عند العشي
اذ حباني الله سبطاً هو سبط للنبي
مرحباً ثمة اهلاً بسلام هاشمي
نبوي علوي حسني صاحبي

ثم قال :

الحمد لله حمداً دائماً ابداً اذ صار سبط رسول الله لي ولداً
ومثل ذلك ما حدث به بديع الزمان الحمداني عن نفسه
قال : كنت عند الصاحب ابن عباد فاتاه رجل بقصيدة يفضل
فيها العجم على العرب وهي :

غنينا بالطبول عن الطلول وعن عنس عذافرة ذمول
واذهلني عقاري عن عقاري فني است ام القضاة مع العدول
فلست بتارك ابوان كسرى لتوضح او لحومل فالدخول
وضب بالفلا ساع وذئب بها بعوي وليث وسط غيل

اذا ذبحوا فذلك يوم عيد وان نحروا ففي عرس جليل
يسلون السيوف برأس ضب هراشاً بالغداة وبالاصيل
بأية رتبة قدمتموها على ذي الاصل والشرف الجليل
الا لو لم يكن للفرس الا نجار الصاحب العدل النبيل
لكان لهم بذلك خير عز وجيلهم بذلك خير جيل
فلما بلغ الى هنا قال له الصاحب قدك ، ثم اشرب ينظر الى
الزوايا واطراف القوم فلم يرني و كنت في زاوية من زوايا البيت
فقال اين ابو الفضل فوثبت وبست الارض بين يديه فقال اجبه
عن ثلاثتك ، قلت وما هي ؟ قال ادبك ونسبك ومذهبك فقلت
ولا مهلة للقول الا بما تسمع :

اراك على شفا خطر مهول بما اودعت نفسك من فضول
طلبت على مكارمنا دليلا متى احتاج النهار الى دليل
نالسنا الضار بين جزى عليهم فاي الحزبي اقعد بالذليل
حتى فرع المنابر فارسي متى عرف الاغر من المجول
حتى علقت وانت بهم زعيم اكف الفرس اعراف الخيول
تخرت بل ماضيتك فخراً على قحطان والبيت الاصيل
وحقك ان تبار بنا بكسرى فما ثور ككسرى في الرعيل

فخرت بنحو ملبوس واكل وذلك فخر ربات الحجول
تفاخرهن في خد اميل وفرع من مفارقتها رسيل
فامجد من ابيك اذا اثرنا عراة كاليوث و كالنصول
قال : فلما اجبته بهذه الايات نظر الصاحب ابن عباد الى
الرجل فقال : كيف ترى ؟ فقال : لو سمعت به ما صدقت ؛
قال : فاذن جائزتك ان وجدتك بعدها في مملكتي امرت
بضرب عنقك ، ثم قال : لاترون رجلاً يفضل العجم على العرب
الا وفيه عرق من المجوسية يرجع اليها .
وسواء اصح وقوع هذه الحادثة ام كانت ضرباً من مقامات
يديع الزمان فانها تصور حب الصاحب للعرب والعربية و بغضه
للشعوبية

ما اخذ عليه في اخلاقه وسيرته

حسنت الصاحب كثيرة جداً وما اخذ عليه من الزلات
والهفات مروى عن ابي حيان التوحيدى الذي الف كتابا ثلب
فيه ابن العميد والصاحب سماه مثالب الوزيرين و ابو حيان
معروف بالتزيد والوضع والمبالغة لاسيما فيما كتبه على الصاحب
فانه تعصب عليه كثيراً وسلبه محاسنه كما يقول ابن خلكان .